كل واحدة صنعت من غرفتها معبدا:

وصفات لسعادة محتملة يصنعها مكر انثوي

فاروق يوسف*

1

في واحدة من أجمل صور انجيلا ستراشيام يمتزج الحلم بالواقع، فيبدو كل شيء على أهبة التحليق، كما لو أن الأشياء كلها وقد شملها النوم بسلامه قد صنعت من مادة واحدة، مادة لا تخفي الأشكال الصلبة التي انتهت اليها خفتها. امراة نائمة فيما كائناتها الحلمية تسير على أرض الغرفة. لو التقطت هذه الفنانة صورة لحجر لنبتت للحجر أجنحة، بشرط أن يؤثث ذلك الحجر غرفة للنوم بنعاسه. صور انجيلا هي منامات لا تذهب في خيانة الواقع بعيدا عنه، بل أنها تذهب به الى تلك الخيانة في صفته دليلا مشعا. كائناتها وحيدة غير أنها لا تظهر أي نوع من التعاسة والبؤس، رضاها الواقعي ينسف أية امكانية لكي يكون الشقاء متاحا. هذه الفنانة تتخذ من الحلم ذريعة لاكتشاف الحياة المعيشة. هي تفعل العكس، بدلا من أن تذهب بالواقع الى الحلم، تحضر الحلم ليكون رهينة أشياء في طريقها الى الغياب. صورها لا تبقي أثرا، هي ليست نوعا من الذكرى، انها تستلهم وجودها من لحظة تماس وجودي بين ما يذهب الى فنائه خالدا وبين ما يرغب في البقاء مفتونا برخاء جماله المتشنج. صور هي تكثيف للحظة ضالة، لحظة تقول كل شيء من غير أن تستغيث بقوة شيء بعينه. أنها تصور الحياة التي نعيشها، وهي بالصدفة حياة لا نعرفها جيدا الا بعد أن نفارقها. هذه المفارقة ترعاها انجيلا باناقة متوترة لتصنع منها صورا نشتهي أن نقلدها، أن نقيم فيها، أن نكون كما لو أنها تخيلتنا. ولكن هل تنطوي الحياة المعيشة على كل هذا القدر من الحلم؟

2

قد لا تنطوي الحياة المعيشة مباشرة على شيء ما يذكر بالحياة الحقة، بل قد تكون نقيضها، من جهة عدم استجابتها لشروط الكائن الذي يدفع ثمن الاقامة بين ثناياها. غير أن هنالك سحرا في مكان ما منها يجعلنا نقبل على الممكن منها كما لو أننا نعثر على لقية، حتى ليخيل الينا في لحظة الحرمان (السجن أو المرض أو حتى فكرة الموت) أن تفاهات تلك الحياة كانت هبات نادرة لم نتح لانفسنا التمتع بلذائذها. ربما ينقص الكلمات الشيء الكثير لتكون بديلا عن الصورة، والصورة هي الأخرى ينقصها الشيء الكثير لتحل محل لحظة العيش الحية. غير أن الفن وهو يسعى الى تجريد الغياب من قسوته انما يحاول تأثيث الفراغ الذي يواجهه الكائن بتفاصيل حياة يومية، لا يمكن استعادة العابر والمهمل والمنسي منها الا عن طريق عاطفة يغلب عليها التأسي لتذكر الكائن بما لم يعشه. يحدث أحيانا أن نتسلى بالتوثيق لينشيء كل واحد متحفه الشخصي، فتتحول الأشياء من حوله الى دمى ميتة يسلبها النظر قدرتها على أن تمضي الى قدرها، أما الفن فانه يفعل العكس تماما حين يستعين بالوقائع ليبقيها عند حدود التوتر، يستلهم اشتباكها بالاشياء ليبقيها حية، كما كانت، بل وكما ستكون، في الصورة مثلما في النظر الذي يقبل عليها في لحظات مجردة من أي معنى. عبأ الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار الأشياء بدلالات شعرية غير أنه أخطا حريتها في الانتساب الى وقائع بعينها، وقائع تقاوم اغتصابها رمزيا لتنساب في عبثية وجودها الواقعي. فالأشياء ليست رهينة ماضيها التخيلي فقط، انها ترتجل حاضرها أيضا، بل أنها تستأنف مستقبلا هو قيد التشكل دائما. فنانو اليوم يكتبون يومياتهم لا من أجل أن يشيدوا أنصابا بل من أجل أن يصونوا أوهامهم من التدنيس، وهي أوهام لا تصف بقدر ما تظهر. ربما يكون حذاء فنسنت فان كوخ هو الخطأ الذي كان بامكانه أن يقول الحقيقة. وهو كلمة السر التي تنطوي على غواية الاختلاف: في الأقل يمكننا أن نقول ما يهبنا حرية أن نكون شهودا.

3

هل تتذكرون غرفته في آرل؟ حذاء فان كوخ وكرسيه وسريره وخزانته. كل شيء لا يزال كما هو حتى اليوم (في تلك اللوحة طبعا). قد يعود فنسنت من نزهته الأخيرة في أية لحظة. ما من فنان صنع من عاداته اليومية مأثرة جمال مثلما فعل ذلك البلجيكي التائه. لقد رسم عشرات اللوحات لموضوعات يمكن حصرها بيسر (هو في الحقيقة أكثر الفنانين فقرا في هذا المجال). لم تكن موضوعاته في حد ذاتها لتنطوي على أية ضرورة استثنائية تستوجب التعليق أو الشغف الشعري، لكن عبقريته شحنتها بتمرد ونفور المعجزة، حتى صارشبحه يطارد كل محاولة لاقتناص الجمال النابت في لحظة عيش عابرة. ما من فنان سحرته الحياة اليومية قد أخطا العثور على ضالته في ما فعله فان كوخ من قبل. دائما كان الفن يتحاشى اليومي الذاهب الى زواله، تلك الأحداث العابرة التي يطوقها النسيان بعبثه، كان الفن يسعى الى نقاء التعبير عن لحظة لا تتكرر، لحظة تكون فرصته لاطلالة مريحة على الأبد. اما فنسنت فانه كان يستفيق دائما على يوم لا يتكرر، يوم تصنعه التأملات العنيدة حيث الجمال يعترض كل خطوة ويفتك مع كل نظرة. ومثلما كانت غرفة فنسنت فان غرف الفتيات المرحات صارت اليوم مسرحا تتقافز بين جدرانه الساحرات غير المرئيات التي يشير الى وجودهن لمعان الجمال الصاخب. لورين غرين فيلد 1966 و الينور كاروشي (1971) وجيان دوننك 1960 ومارلين بيركهام 1973، يقبضن على نور الأشياء الخفي، حيث صنعت كل واحدة منهن من غرفتها معبدا. غرف متشابهة (هل هي كذلك فعلا؟)، غير أن حساسية العيش المختلف تهب كل غرفة وقائع جمال صاف يهب عبث العيش فيها نوعا من المعنى. النتائج الفنية التي انتهت اليها كل واحدة منهن انما تجعلنا على يقين من أن هنالك أحلاما كثيرة تختبئ في كل ثنية من ثنيات مكان مسكون بالحكايات.

4

جيان دوننك تبتكر في واحدة من أكثر صورها روعة مادة للنوم، مادة تسيل بالاحلام، تحت الرأس مباشرة. اختراعها الهادئ هذا يعزز صدقه استسلام الجسد البريء لضرواة الحلم. هناك ما نود الاستفاضة فيه، ليست الاحلام كلها شبيهة بحلم غريغوري سامسا بطل كافكا في المسخ، (صنع الامريكي بيل دوريان ـ ولد عام 1970 ـ صورا هي عبارة عن مقاربات مستلهمة من تلك الرواية) هناك أحلام سعيدة أيضا. الينور كراشي تغيضها احلام بطلاتها المترفة فتنزلق الى الصور، لتكون هي بطلة تلك الصور، وهذا ما تفعله غير مصورة الان. لا تكتفي الفنانة بصناعة الصورة، فما لم تكن هي موجودة في صورها فان كل شيء يعود الى أصله الوهمي.

الحقيقة كاملة يقولها الجسد مثلما تقولها الصورة فيما بعد، فليست الصورة قناعا ولا يرغب الفنان هنا في أن يقدم لنا وجبة رمزية، الحياة المعيشة بالنسبة لفناني اليوم ليست مجموعة متلاصقة من الأيقونات، بل هي الحياة التي نختبر غيابها في كل لحظة من لحظات تجددها. وكما أرى فان جيل الفنانات الجدد قد صنع منفى للجمال، يذكر بـ(يوليسيس) جيمس جويس وزمن مارسيل بروست الضائع.

منفى هو مزيج من متعة العيش والرضا بالضلال الذي يحل بتأن. الفنان من خلال صوره يتقدم الى الحياة بوصفة، هي مجرد مقترح لسعادة محتملة. وهو يعرف أن وصفته تلك هي بالنسبة للآخرين اشبه بالسم، لذلك يقدمها معجونة بخبرته. خبرة الكائن الذي يود في كل لحظة أن يكون صورة.

* شاعر وناقد من العراق يقيم في السويد

«موديل» لجيان دوننك (القدس العربي)

احدى صور انجيلا ستراشيام (القدس العربي)

قص

في ليالي الصيف

د. توفيق قريرة *

■ في ليالي الصيف وحين تضيق البيوت الكرتونيّة بأنفاسنا كنّا نصعد إلى السطوح نطلب النسيم وشيئا من ضوء القمر؛ كنّا نجلس في مجموعات ولكن في صمت؛ عيوننا وحدها كانت تتكلّم ، وأجسامنا وتنهّداتنا. وحين نرى أجساما في بؤرة ما من بؤر النور القليلة، نرسل إليها عيوننا كالسهام تقتل شبحها حتّى تعود إلى ظلمة الليل ونعود لنصطاد شبحا جديدا.. وحين تمرّ كتلة من النور طائرة في السّماء تطاردها عيوننا حتّى تغيب ، كنّا نمارس على السّطوح الجوسسة ومن سطوح الجيران البعيدة أو القريبة يمارس الآخرون علينا الجوسسة كانت السطوح مراصد ويا ويح من لا يصعد في الصيف إلى السطوح كانت العيونُ الحارّة تُرْسَلُ عليه مُمَدّدًا في بيته أو مع زوجه؛ ويصبح لكلّ حركة معنى رمزيّا شهوانيّا أو استفزازيّا؛ فكلّ الأجسام المتمدّدة أجسامنا وكلّ السجائر المشتعلة تتنفّسها نساؤنا وكلّ القصاع والجفنات والموائد لنا نأكل منها بالعين ما تأكل منها أفواه أصحابها وتشرب. وحين تكلّ عيوننا ولا يأتي شيء مهمّ يداعب جفوننا النعاس فتسارع النسوة إلى الأسفل لتنام ونبقى نحن الرجال عيونا عليهنّ وعلى غيرهنّ؛ فننام بنصف عين ونطمع أن ترى الأخرى من المحرم ما لم تره أوّل الليل.

في تلك الليلة نام الرجال الذين يقاسموننني السطح بملء عيونهم كانوا متعبين من الحصاد ولم أكن متعبا لأني أرسلت في اليوم نفسه إلى القرية المجاورة في مهمّة خفيفة فلم ينلني من تعب اليوم ما نالهم. لذلك لم أنم وبقيت أحدّق في السّماء أرعى النّجوم أجمّعها فرقًا فرقًا ثمّ أضع عليها سيّدا وبعدها أسوقها باتّجاه القمر. كان كلّ شيء يمرّ على ما يرام حتّى تصل النجوم إلى أوّل البُهْرَة القمريّة، وعندها يَنْفَرِطُ عقدُهَا وتجْري في كلّ اتّجاه؛ فأعيد الكرّة وأنصّب سادة جددا فيحدث معهم ما يحدث مع غيرهم تفرّ النّجوم من النور وتأبى أن تنصهر في بهر القمر كأنّما تعوّدت على أن تكتفي ببعض أسلاكه ، تأتي إليها من بعيد. تركت النجوم تنفرط وعدت أتململّى هذا البهر القاتل غارت عيناي في لجّته حتّى لفّ النور كامل جسدي ارتعشت من الخوف واشتقت الظلمة ولمّا أردت أن أحوّل بصري إلى عتمة دارنا أُسرِتْ عيناي وانجذبتا إلى محيط من النور شاسع. شعرت من فرط النّور المنبعث من دائرة القمر أنّ عيني سلبتا نورهما.. وفجأة انفتحت فجوة في دائرة الضوء الكبرى ورأيت وجها مُفارقًا للوجوه البشريّة المألوفة. ابتسم لي وقال: تَمَنَّ..يَتَحَقَّقْ... قلتُ ومنْ غيرْ مَا تَفْكِيرٍ: برميلا من النفط. وما هي إلاّ لحظة وانقضّ أوّها حتّى صرت أنا بلحمي ودمي برميلا من النفط ؛ جسمي صار قصديرا معلبّا في هيأة برميل ودمي صار نفطا رائحته مألوفة لديّ ولونه أسود وأنا بوعيي القديم وبروحي القديمة، وبأشياء أخرى كلّها تكوّرت وصارت في برميل.. لم يفهم ذلك الجان القمريّ ما طلبته منه؛ طلبت منه أن يَهَبَنِي برميل نفط أبيعه كي أشري كسوة وقطعة جبن دنماركيّ ولكنّه جعلني أنا بلحمي ودمي برميل النفط.. من سيبيعني ومن سيقبض ثمني تمنّيت أن تبيعني أمّي على الأقلّ أو أبي ليشتروا ما يرومون .. ما لي أنا والنفط والبراميل لم أفكّر فيها في يقظتي فكيف حدث حتّى أطلب ما طلبت.. ربّما كانت تلك آخر عبارات سمعتها في أخبار اليوم.. أيقظتني ساق دحرَجَتْني على ناقلة ظللت أتكوّر وأدور حتّى وجدت مكاني بين أشقّائي البراميل ... شعرت بشيء من الطمأنينة لأنني كنت متحرّجا من هيأتي المفردة، فإذا أنا برميل بين آلاف البراميل.. لكَزْتُ برميلا إلى جانبي وسألته: من أيّ البلاد جاؤوا بك فلم يجبني ..التفت إلى الجهة المقابلة وأعدت السّؤال فلم يجبني أحد. كانت كلّ البراميل النفطيّة صمّاءَ بكماءَ إلاّ أنا أتكلّم .. خامرني شكّ في أن تكون البراميل تتكلّم لغات أخرى غير لغتي سألتها بلسان حفظته في المدارس فلم تجبني.. لقد حُكم عليّ بأن أعيش أخرس بين الخُرْس على الرغم من هذا اللسان الذي لي . اللعنة على هذا اللسان هو الذي جلب عليّ هذا الوبال عشت بين جماعتي أخرس فلمّا نطقت مسخني لساني فصرت برميلا لا يقف إلاّ ليُدَحْرَجَ.. لست أدري كم من الوقت مرّ من عُمُر البرّاميل حتّى وصلنا إلى مكان ما.. جاء العَمّال فحملونا بكثير من اللطف الذي لم أعرفه وأنا كائنٌ بين البشر.. كان جسمي في كثير من أحواله البشريّة يُدفع ويُركل ويُضغط ويُعصر ويُلوى في الحافلات وطوابير الجمعيّات في الشّارع وفي البيت ..

أمّا الآن فالرفق الرفق.. انتبهت إلى العيون تنظر إليّ بكثير من إعجاب وتقدير لم أحْظَ به في هيأتي البشريّة... لم أكن أمرٌ إلاّ لأتبع بالنظرات الشّاكّة والمرتابة واللاّعنة والسّاخطة والكارهة والقاذفة والمتوعّدة والمتربّصة..

أمّا الآن فالعيون على قشرتي تلج إلى ما في بطني الحامل نفطا تدغدغه وتربّت بنعومة عليه فتنزل على النفط بردا وسلاما..أين زمن احتراق دمي في مرحلتي الآدميّة؟ حرقت دمي تلميذا وطالبا حرقت دمي عازفا للتربة، فلاّحا في أرض لا تبخل إلاّ على من يحرثها ويرعاها ويحنو عليها...حرقت دمي على الرجال أصطفيهم وبقلبي أشتريهم فيبيعوني في كلّ سوق بأزهد ثمن.. حرقت دمي عليّ كيف أعبدُ ما لا يعبدون... والآن حين صار دمي نفطا صار كلّ شيء هادئا ومرتخيا ومريحا...

ساقوني بكلّ الاحترام إلى السّوق اشتروني بالمزاد وباعوني بالمزاد؛ ودون أن يقلّبوني أو يتأكّدوا من لوني ومن عيوني .. وشوشت في أذن سيّدي الأشقر الجديد أني لست كالبراميل الباقية: لي لُغَةٌ ؛ قَهْقَهَ وقال: أنت لا تحتاج أن تتكلّم بل يتكلّم عنك.. قلتُ: لي روحٌ ، قال والابتسامة لم تغادر مُحيّاه: أنت روح العصر..قلت: لي بلد بعيد أرجعوني إليه: قال ليس قبل أن يدفع أجرك...

تركوني في مكان ما بين البراميل الأرستقراطيّة تحرسنا العيون من شيء ما قد يأتي ويسرق رونقنا أو رائحتنا ..على الرغم من أنّي شعرت بالكبر فجأة فإنّ رغبتي في مشاركة الأهل النظر من السطوح ما فارقتني ..خامرني شعور أنّه لو انشقّ القمر وجاء ذلك الوجه لتمنيت منه أن يجعلني سيّدا للبرميل عندها أكون مالك أمري وسيّد قراري وأعود إلى أرضي الأولى.. سهرت وأنا بين البراميل أرقب القمر أن يجود عليّ بذلك الوجه ..كدت آيَسُ ولكنّ عزمي وصبري جَاءا بذلك الوجه وأطلّ عليّ من جديد وقال: تحقّقْ... وتمنّ.. قلت: سيّدُ البراميل .....قال بصوت مزمجر: خسئت ..عليك اللعنة ..كيف يطمع مثلك في مراتب الألوهيّة ..عليك أن تستغفر وإلاّ رجمتك الآلهة ..قلت: لم يحدثني أحد في الأساطير عن آلهة النفط .. قال: سوف تعلم حين تُمسَخُ وتُردُّ إلى أقبح صورة..لم ينْه كلامه حتّى انقلبت إلى هيأة قَمَعٍ ملُوّث برَائحة البترول.. التفتّ حولي فرأيتُ مكانا أعرفه ..إنّه سطح دارنا..

وأنا ملقى في ركن من أركان السطح وإلى جانبي وعاء تنبعث منه رائحة البترول... لم أفهم كيف صار الفصل على سطوحنا شتاء ...البرد يشوي جلدتي والريح تدفعني في جميع الاتّجاهات..

ما أدري كم من الوقت مرّ حتّى شعرت بدفء يد آدميّة تحملني ...إنّها أمي..هي نفسها أمّي صرخت بأعلى صوتي:أمي أنا ولدك..أحضنيني ..لم تسمعني .. ولكنّها وضعتني في فم سخّان بترولي لا عهد لي به في دارنا.. أدركت أني غبت طويلا عن دارنا.. وأنّ أمّي تناستني ...كيف لها أن تفخر برجل من رجالها وقد صار برميلا ثمّ ردّ إلى هذه الشكل الذي لا يكتم شيئا ممّا يحوي...هذا الشكل اللولبيّ المقعّر من الرأس حتّى المؤخّرة... ساورتني وأنا أتفكّر في شكلي السّاذج والمفرغ أن لا قوم بدوري صبّابا للبترول وناقلا له عبر فؤادي المقعّر ... كانت أمي تسكب البترول من الوعاء فأراوغ المَصَبّ فيضيع البترول.. حاولت أمي مرارا حتّى اندلق نصف السّائل الأسود المتوسّط... رمتني جانبا .. وحاولت سكب النفط من غير قمع .. ثمّ نزلت.. حاولت بعد ذلك مرّات مرّات فأعدت مراوغاتي حتّى يئست أمي من وظيفتي فأهملتني.. وفي يوم قررت أمي أن تغسلني فلمّا تطهرتُ من ريح النفط وجفّت سيوله مني، سكبتْ مني زيتا من زيتونتنا العظيمة عند أوّل حقلنا .. شعرت بعبق الأرض فانصعت .. في يومها صار لي رونقٌ ونورٌ يزداد شيئا فشيئا كلّما اقترب الصيف.. صرت أطلّ بنوري على الخارج المظلم وعادت عيني ترى ما كنت أراه رجلا غير أنّي الآن عين من غير مُبْصِر ...

أنا هناك يا سادتي.. ناشدتكم بالله إذا ما زرتم أمّي وحملتكم إلى السّطوح أن تخبروها أنّ القمع الذي تصبّ منه الزيت هو ولدها كان ذات يوم برميلا من النفط فمسخته آلهته فتقمّع...

* أستاذ جامعي من تونس

تداعيات

في وداع 12 جزيرة

عوني الجيوسي*

■ أكثر من أربع سنوات في هذه البلاد توشك أن تبدأ، بعد أن انقضت عدتها الزمنية. ها أنا أتحسس جواز سفري كمن يتحسس عروة السرج قبل أن يعتلي حصاناً. هناك شيء دائري في السفر يوحّد الغدوّ بالإياب، ويستحضر في آخر يوم لك ببلد ما (دي جا فو) أصله الغامض لا محالة في يومك الأول فيه، وكأن العبور لا يعرف في الوعي الإنساني اتجاهاً، وتطغى فيه الصيرورة على هوية المدخل والمخرج. أنظرُ عبر النافذة إلى كنيسة تاريخية تواجه مبنىً مقوسا، ونورس يحوم حول الصليب. وتماماً كما في اليوم الأول، تستبد بك التفاصيل وأنت تعرف أن المناظر والأصوات والروائح كلها مرشحة لتكون الأخيرة من سلالتها، بعد أن استهلكت حظها من التكرار في رباعية تبدو اليوم مسافة نصف دورة لأطول عقارب الساعة، ولكأنك تُودِع الصور في كبسولة زمنية ترمي بمفتاحها من شباك الطائرة، وتدفنها بما حوت في تربة مخاتلة، سطحها ذاكرة، وباطنها نسيان لا يعرف الرحمة.

أكثر من أربع سنوات توشك أن تبدأ بقدر ما توشك أن تنتهي، ولم يبق في رمقها أكثر من أيام يقرأ في ختامها قبطان جوي إعلان الوفاة في عبارة تعرّض عن النبأ بطلب مموّه لربط الأحزمة. الآن فقط أكتشف بأن الاغتراب وحده لا يكفي لبتّ الصلة بين المرء والمكان، وربما تفي أربع سنوات لخلق مودة ما بين الحوت، وصحراء ترملت فيها الأمواج حتى صارت كثباناً. وكأنها غريزة يستودعها الله في خلقه تصبيراً لهم على اغتراب لا ينفك ووطن أشبه باستحالة فيزيائية، إن لم يطح به نظام مستبد أو ملك طاغ، تكفل به رشاش عوزي يلوّح به جندي وصل للتو من الحبشة.

أقلّب في صحيفة يومية على كرسي عام وسط المدينة، ولكني ذاهل عمّا في الصحيفة لأن العقل مشغول بإشباع مقدّم لنوستالجيا خداجية ولدت قبل موعدها ووجدت في كأس للشاي وإطلالة على تمثال لنلسون حاضنة مثالية لن يطول الوقت قبل أن تعدمها. هاهو اليوم الأخير يصل متنكراً في هيئة اليوم الأول، حين كانت كلمة بالإنكليزية لسائق حافلة تبدو اقتباساً بليغاً من ديكنز، وسؤال عامل النظافة عن اتجاه ما يستلزم تحضيراً مبكرا لصيغة استفسار يبحث عن مفرداته من منولوج لهاملت. كانت الإنكليزية يومها عذراء محمرّة الخدين وراهبة تعتزل العالم في قصيدة ومسرحية، وهاهي بعد أربع سنوات من الضلال في حوارات مبتسرة مع بائع الصحف وسائق الأجرة وموظف البريد، هاهي تؤوب لصومعتها وتدخل المحراب. ما يزال القاموس في حقيبتي، وكومة من الدفاتر الصغيرة على الصفحات الأولى من كل منها بدايات مشروع لا يكتمل لبصم مفردات المعجم، تنتهي جميعها عند اكتشاف متأخر لشيطانية هذا النبت الذي لا تضرب منه فرعاً حتى يبرعم على الفأس الذي احتزّه. وما زال حتى اليوم ذلك التعب النابع من جذر اللسان بعد حوار مطول بهذه اللغة رمزاً بليغاً لكل الاغترابات، فآلة النطق التي تمرّست على الضادات والصادات صارت تجاهد نفسها لتأتي براءات لثغاء وأحرف زائغة تفيض عن عين الفراهيدي ولسان المنظور. أتحسس أذنيّ فأشعر وكأن الصيوان تدبب لفرط الإنصات ومحاولات تعويض فارق اللغة في مسرحيات شكسبيرية تتمنى لو كان جبرا يجلس على يمينك فيها. داخل هذا المسرح اللولبي الفاخر والهائل، في المدينة التي ولد فيها شكسبير، ومن تحت شُرفاته البارزة المزركشة تولّد في نفسي عداء مستحكم تجاه ثقافة متبرّجة وأدب لا يخرج على ضيوفه إلا بياقة منشّاة وقميص مكوي، والحرس فيه يدققون بتذكرتك مرتين لأنك تلبس حذاء رياضياً أو بنطالاً لم يعرف يوماً دفء المكواة. هذا العداء، الذي قاد المرء لأزقة خلفية ومسارح مغمورة، تحول إلى نقيضه التام، فالمسرح ليس بحاجة إلى أرضية دوّارة أو سقف يتحرك باللاسلكي حتى يكون آسراً وبالغ النجاح، وهي رسالة تمتد لما هو أبعد من خشبة التمثيل وتقول الكثير عن المتلازمة المزعومة للمحفظة والإبداع. فوق خشبات هذه المسارح الصغيرة، كان ممثلون لم تسعفهم البروفات في حفظ أدوارهم عن ظهر قلب ينقلونك من عالم لآخر ويُنسونك ما يَنسونه من سطورهم بحسن أدائهم لما يذكرون. وكمن يستيقظ من الحلم على وقع الزلزال، تنبّهك من غفلتك المسرحية دائرة من القيء على بوابة المسرح أودعها سكران في طريقه إلى الخمّارة السابعة قبل أن يسرّي عن كليتيه في زاوية لموقف الحافلات، ويذكرك من جديد بوجه آخر لهذه البلاد.

صافرة قطار قادم تنادي من بعيد، وسكّتا حديد تحوّل بينهما عوارض غليظة، لكنهما يلتقيان خلسة في أبعد نقطة في الأفق. ماذا بقي من القطار في هذه المركبات الحديثة؟ قاطرة الفحم أضحت خزّاناً، والعامل القابض على المجرفة السوداء أمام الفرن المتقد صار مضخة وقود لا تتعرّق. حتى المدخنة الشهيرة رُدمت، وساعة الجيب المتدلية من قميص مفتش إنكليزي أنيق صارت عقدةً حول الرسغ. لم يبقَ غير الصفير الحاد لفم حديدي شفتاه سكة وعجل معدني، ومقعدان متقابلان قرب النافذة، أحدهما يرميك بالتلال والخمائل، والآخر يسحبهما منك بلا استئذان. وحده النهر سلم من مسخ الحداثات المتعاقبة، وما زالت الضفتان في المدينة الإنكليزية ـ لليوم ـ تحتشدان على طرفي النهر وتتراشقان بالجسور، وكأن طلائع الرومان وصلوا للتو إلى الجزيرة. سيظل عبور الجسر أجمل ذكرى بهذه البلاد، ولربما لم تغدق الأسطورة ولا الرواية ولا القصيدة على هيكل كما فعلت مع الجسر لتترك في حاصل جمع رموزها شعورا طاغيا بالإبهام لديك كلما وصلت منتصف المسافة بين الضفتين. يقودني شارع ضيق إلى بحيرة لم أزرها منذ زمن. بجعة بيضاء تطفو على سطح الماء ما بين جسر مقوّس وانعكاس مموّج لعمود إنارة لا يستيقظ إلا ساعة الغروب. كل شيء يبدو الآن خارجاً من رحم القصائد والروايات، وقد تكفي مسحة على جناح طائر حتى ترتد البجعة أميراً، أو رمية لحجر وسط بحيرة حتى يستيقظ مارد أسطوري يطلب حلاً عاجلاً لأحجيته المستحيلة. في هذه الساعة من الليل يتوجب المشي بحذر فالمسافة بين الحلم والواقع تهوي تحت الصفر بعد أن يتداخل العالمان ويصبح للرائحة صوت ولدرجة الحرارة ملمس مدبب حول الأطراف.

«في الجزء الشمالي من المحيط اثنتا عشرة جزيرة تدعى (براطينيا) وتقع بعدها بلاد لا سكان فيها، ولا أحد يعرف ما هي...». تطفو عبارة ابن رستة على سطح الذاكرة بدون بطاقة دعوة، وكأنها تحاول كسر شاعرية غثة لا تناسب المكان ولا الزمان. وأشعر بمدّ المزاج وقد انقلب جزراً ليضحي التأمل ترحماً على زمن كانت فيه بلاد إيدن وكورمر وسايكس 12 جزيرة على تخوم العدم، وآخر عهد المسلمين بحد الخارطة المرسومة. ها هو اللنبي يعبر باب الخليل، وظل (تورنيدو) ينعكس على جسر فوق دجلة. تفتح أطلساً على خريطة للشرق الأوسط فيصغر جوزيف تيرنر بعينك وأنت ترى أهم عمل تشكيلي قدمه إنكليزي في التاريخ، ويخال إليك بأن الله اصطفى هذه الجزيرة شباة لقلمه وهو يكتب أقبح فصول أقدارنا على لوحه المحفوظ. ها هو الصبي الفرويدي الذي يلكم أباه ثم يحضنه على الفور لأنه يودّه ويكرهه في الوقت ذاته. يشد رجل إنكليزي على يدي ويقول: حلمي أن أشارك في اقتحام مستوطنة في قطاع غزة، ولا ألبث أن ألتفت حتى أرى لوحة معدنية تبيّن اسم الشارع: «بلفور». تنظر إلى عبّارة تمر في هدوء عبر التايمز، فتشعر بسكينة غامرة، ثم تلتفت فترى تمثال لريتشارد قلب الأسد يلوّح بسيف برونزي على مدخل برلمان لم يفقد لياقته بعد لإجازة حروب حزبه الحاكم. تغرق العبّارة ويجف النهر وتضيع السكينة في مكان لا سبيل لتذكره.

ورغم هذا وذاك، فها هي أربع سنوات توشك على النهاية في جزر ابن رستة الاثني عشر. كنيسة قديمة تواجه مبنى مقوّساً، وصافرة تخبو لقطار مبتعد يذوب حيث تلتقي السكتان. رشفة نهائية من كأس الشاي، وتفقّد أخير لعروة السرج.

* كاتب من فلسطين يقيم في بريطانيا